علاقة اللغة العربية
بالسيادة الوطنية والهوية

أ.د/ محمد محمد داود

الخبير بمجمع اللغة العربية «بالقاهرة»

والأستاذ بكلية الآداب ــ جامعة قناة السويس

مقدمة

اللغة شاهدٌ على العصر وسجلٌ للواقع، تفضح ما فيه من سوءات وكذب وتخلُّف، مثلما تبرز أيضًا جوانب القوَّة والتفوُّق والتقدُّم الحضارى.

وكما نعرف الأشخاص على حقيقتهم إذا تكلموا، فهكذا المجتمعات والدول نعرفها على حقيقتها من مستوى لغتها؛ فاللغة مرآة أهلها.

واللغة هى الهوية، هى الأصالة، وازدهار لغة ما دليل على تماسك أهلها ورفعة حضارتهم، كما أن ضعف لغة ما دليل على ضعف أهلها وتراجعهم؛ فاللغة بأهلها قوةً وضعفًا .

وغلبة اللغة بغلبة أهلها، ومنزلتها بين اللغات صورة لمنزلة دولتها بين الأمم، ويعتمد ذلك بالدرجة الأولى على الثقل السياسى والمركز الثقافى والعلمى والتقنى والاقتصادى، وشواهد التاريخ قديمها وحديثها تُظهر بجلاء أنه لم تتقدم دولة ولم تُشيَّد حضارة لم تكن العلوم والتعليم فيها بلغة الأمة نفسها لا بلغة أجنبية عنها، وإذا ضعفت قوة الابتكار في شتى مجالات الحياة توقفت اللغة، وإذا توقفت اللغة تقهقرت الأمة، وإذا تقهقرت الأمة فذلك هو الموت والاضمحلال والاندثار.

واللغة وعاء لحضارة الأمة وثقافتها، وهى الأداة الفعالة لبناء النهضة والحضارة، وهى الواسطة التى تجعل من الأمة مجتمعًا متماسكًا.

يروى أنه فى سنة ١٤٩٢ قام العالم اللغوى الإسبانى (أنطونيو نيبريجا) بوضع كتاب فى نحو الإسبانية وصرفها بمناسبة اكتشاف أمريكا وقدمه إلى الملكة (إيزابيلا) لأول مرة فى تاريخ اللغات الأوروبية،

اندهشت الملكة، ثم سألته: وما فائدة هذا الشىء؟ فأجاب: يـــا صـــاحبة الجلالة: إن اللغة هى الأداة الفعالة فى بناء الإمبراطوريات [١]!

ولغتنا العربية – فى معركة الحضارة المعاصرة – تعانى مشكلات وتصادفها عقبات من أبرزها:

- تدريس العلوم الطبيعية والطبية بلغة أجنبية.
- حرمان المكتبة العربية مـــن الأعمـــال الموســـوعية العامـــة والمتخصصة، وكذلك المعجمات بمستوياتها المختلفة.
- كنوز المخطوطات العربية المشتتة بين مكتبات العالم لم تحـــظَ بتحقيقها ونشرها ودراستها وتقويمها.
- حال العربية فى دور التعليم وغياب التكامل العلمى فى تعلـــيم العربية، فمناهج التربية والتعليم ضد ازدهار اللغة العربية، بل هى سبب مباشر للضعف اللغوى.
- نزعة المجتمع إلى التغريب.
- الجانب الأكبر من التراث الإنسانى لم يترجم إلى العربية حتـــى اليوم.
- لم يتم تيسير سبل تعليم العربية لغير العرب بطريقـــة علميـــة حتى اليوم.
- افتقاد رؤية لمستقبل اللغة العربية، فلا يوجد لـــدينا تخطـــيط لغوى للمستقبل [٢].

وهذه المشكلات هى هموم اللغويين العرب، وعلـــى الـــرغم مـــن امتلاكهم حلول هذه المشكلات إلا أن شيئًا منها لا يعـــرف طريقـــه إلـــى النور، وأتساءل مع الملايين العربية:

- **هل لأننا ظواهر فردية لا نحسن العمل الجماعى بروح الفريق ونحن فى عصر التكتلات التى تجتاح كل ما هو فردى؟!**
- **أم لأن اللغويين لا يُمكَّنُ لهم فى الإعلام والتربية والتعليم والمؤسسات التى تملك سلطة القرار فتظل جهودهم مجمدة على الأرفف وكأنهم يؤلفون لأنفسهم؟!**
- **أم أصابهم العجز عن التغيير والتطوير المنشود بسبب هموم الحياة ووطأة العيش التى جعلتهم يلهثون لتحصيل حد الكفاف من العيش، فالعربية فى أزمة لأن الإنسان العربى فى أزمة؟**
- **أم لهذه الأسباب مجتمعة ؟!.**

وفى الصفحات التالية رؤية لعلاقة اللغة بالهوية والسيادة الوطنية، لعلها تكون حافزًا للوعى بأهمية العربية فى تماسك الأمة وتعزيز هويتها ودعم قوتها والتمكين لسيادتها.

اللغة والهُويَّة فى معركة الحضارة

- **ما الهوية؟ وما صلتها باللغة؟**

الهوية: كلمة مركبة من ضمير الغائب «هو» مضافًا إليه ياء النسبة، للدلالة على السمات المميزة لشخص أو مجتمع أو أمة بين الأمم. وفى إطار صراع الحضارات فى ظل العولمة والأزمة التى تواجه كيانات عديدة فى المجتمع البشرى: من الضعف والتهميش والإقصاء أمام الكيانات الأقوى، تحاول تلك الكيانات دعم هويتها وإبراز ملامحها؛ وفى هذا السياق قفزت على السطح أسئلة لاهبة:

من أنا؟ ومن الآخر؟ وما موقعى من الآخر؟ وأين هو منى؟ وماذا أضيف إلى الآخر؟ وما قيمتى المضافة فى التاريخ البشرى؟ وهل ما زلت أملك القدرة على العطاء، أم جف المعين؟! وهل أملك القدرة على البقاء؟! أم سأكون فى سلَّة التابعين؟!

وهوية أى مجتمع أو أمة تتمثل فى ثلاثة أمور رئيسة، هى:

١- الدين.

٢- الثقافة: وهى هنا بمعنى أسلوب الحياة.

٣- اللغة: فاللغة هى المظهر الفكرى والثقافى الذى يميز مجتمعًا عن مجتمع وأمة عن أمة.

- **العربية والثقافة والتغريب:**

المتأمل للواقع الثقافى واللغوى يرى بوضوح ألوانًا من الاختراق الثقافى الذى يهدف إلى استلاب الهوية ومسخها، من ذلك: هجوم الانجليزية والفرنسية على العربية فى عُقر دراها، لقد ظهرت بدعة مدارس اللغات التى يتزاحم الناس عليها، والتعليم فيها يتم بلغة أجنبية، مع تضييق الخناق على العربية فى أرضها؛ ممَّا أدى إلى ازدواج الثقافة

فى المجتمع، فهناك ثقافة أجنبية فى هذه المدارس، وهناك ثقافة قومية فى المدارس الحكومية، وهما ثقافتان متعارضتان فى الأعم الأغلب.

ومن الاختراق الثقافى الذى يهدف إلى مسخ الهوية إطلاق الولايات المتحدة مشروعها «الشرق الأوسط الجديد» وسمحت الحكومات العربية بإنشاء إذاعات وفضائيات إقليمية تبث باللهجات العامية مختلطة بعبارات وكلمات إنجليزية، بالإضافة إلى تقلص حصة العربية الفصيحة لصالح العامية فى وسائل الإعلام الوطنية بحجة تقريب المعرفة إلى فهم عامة الشعب.

وهذا ضرب من التغريب نشأ عنه ضعف فى العربية وقادنا إلى التلوث اللغوى الذى نرى آثاره فى هذه اللافتات التى كتبت فيها كلمات إنجليزية بحروف عربية مثل: شوبنج سنتر، دريم لاند، سوبر ماركت، مول، سنتر.. ويستمر التغريب فى كل نواحى المجتمع من سلوك وأنماط الثقافة المختلفة فى الملبس والمأكل والحوار ونظام العمل للمرأة .. إلخ.(٣)

وما من شك فى أن هذا التغريب إضعاف للهوية، وبالتبعية إضعاف للسيادة الوطنية.

- **العربية فى خطر!!! :**

يؤكد علماء اللسانيات أنه يوجد فى الوقت الحاضر ما بين ٥٠٠٠ و ٦٠٠٠ لغة (طبقًا لنوعية التصنيف واحتساب اللهجات أو عدمه)، وتشير الإحصائيات العلمية أن ما بين ٢٥٠ و ٣٠٠ لغة تنقرض سنويًّا بفعل سرعة التواصل والميل إلى استعمال اللغات العالمية الأكثر فاعلية، وهذا ما يسميه بعضهم بالغزو الثقافى أو اللغوي.

وبعملية حسابية بسيطة يتبيّن لنا أن القرن الحالى سيشهد اندثار حوالى ثلاثة آلاف لغة، أى نصف لغات العالم .

وقد أكدت منظمة اليونسكو ذلك، فقد "أسفر أحد تقارير اليونسكو الأخيرة عن أنَّ عددًا من لغات العالم مهدَّدة بالانقراض، ومن بينها اللغة العربية" (٤).

وقد ألف اللسانى البريطانى ديفيد كريستال كتابًا بعنوان "موت اللغة language Death" عدَّد فيه تسعة شروط لموت اللغة، وجميعها تنطبق على اللغة العربية فى وضعها الراهن، وفى مقدمتها شرط انتشار لغة الغالب فى بلاد المغلوب وحلولها محلَّ لغته التى هى من مقوِّمات الأمّة، وهذا مبدأ معروف فى علم الاجتماع أرساه ابن خلدون فى "المقدِّمة" بقوله: "إن المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده ... إن الأمَّة إذا غُلبت وصارت فى ملك غيرها، أسرع إليها الفناء" (٥).

- **مؤشرات دولية تنذر بانقراض اللغة العربية على المستوى الرسمى والعالمى:**

العربية لم تعُدْ لغة عالمية، فمنظمة الأمم المتحدة تتجه إلى إلغاء العربية من بين اللغات العالمية الرسمية فى المنظمة وهى: الإنجليزية، الإسبانية، الفرنسية، الروسية، الصينية، العربية؛ وذلك لثلاثة أسباب:

١) عدم استعمال ممثلى الدول "العربية" اللغة العربية فى الأمم المتحدة، فهم يستعملون الإنجليزية أو الفرنسية.

٢) عدم وجود مترجمين عرب أكفاء يجيدون اللغة العربية .

٣) عدم وفاء معظم الدول العربية بالتزاماتها المتعلقة بدفع نفقات استعمال العربية فى المنظمة.

وأوضح المفكّر التونسى الدكتور عبد السلام المسدّى أن ضـــغوط الدول الكبرى على اليونسكو جعلتها تعلن مؤخَّرًا أن الحقـــوق اللغويـــة تنحصر فى ثلاثة:

- الحق فى لغة الأم.
- الحق فى لغة التواصل فى المجتمع.
- الحق فى لغة المعرفة.

وتعني هذه الحقوق بالنسبة إلى بلداننا ما يأتى:

- لغة الأم: اللهجة العامية أو إحدى اللغات الوطنية غير العربيـــة مثـــل الدنكا فى السودان، والسريانية فى سوريا، والأمازيغية فـــى الجزائر والمغرب.
- لغة التواصل: اللهجة العربية الدارجة .
- لغة المعرفة العالمية: الإنجليزية (أو الفرنسية فى بعض البلدان).

وهكذا فالعربية الفصحى المشتركة بين بلداننا لا مكان لها هنا فى هذا السياق، ولا تشكّل حقًّا لغويًّا لأى فرد! وسيكون إعـــلان اليونســـكو هذا ورقة ضغط إضافية بيد الدول الكبرى التى تسعى إلـــى إلغـــاء أيـــة وسيلة تفاهم مشتركة بين بلداننا قد تشكّل أساسًا لاتحاد عربى مـــن أى نوع.

ومن ناحية أخرى، فقد اتخِذ عدد من الإجراءت العملية مثل:

- إلغاء تدريس اللغة العربيـــة فـــى بعـــض الجامعـــات الأمريكيـــة واستُعيض عنها باللهجات العربية مثل الشامية والمصرية والمغربيـــة والعراقية... إلخ.
- كان امتحان الثانوية فى فرنسا يسمح فيه للطالب باختيـــار لغـــة ثانية كالإنجليزية والألمانية والإسبانية والعربية، وابتـــداءً مـــن ســـنة

١٩٩٥م لم تعد العربية من بين هذه اللغات واستُعيض عنها بعدد من اللهجات العربية.

• ظل عرب ٤٨ فى إسرائيل – مسيحيين ومسلمين – يحرصون على تعليم العربية فى مدارسهم لتكون وسيلة للتعبير عن هويتهم وانتمائهم لشعبهم الفلسطينى العربى، ولكن إسرائيل اتّبعت سياسات إهمال اللغة العربية وتهميشها فى الحيز المدرسى وتهجينها بالمصطلحات والتعبيرات العبرية والإنجليزية.

• العربية والقرآن والحياة:

ما معنى أن العربية مهددة بالانقراض وهى لغة القرآن الكريم؟

حقًّا إن ارتباط العربية بالقرآن الكريم له أثر بالغ فى حفظها وحمايتها من الانقراض، لكن بقاءها حال ضعف العرب وتنكرهم لها ــ يبقى فى حدود اللغة الدينية المتمثلة فى أداء العبادات كالصلاة والدعاء والحج وخطب الجمعة وتفسير القرآن والحديث النبوى والفقه ... إلخ، لكنها تختفى وتنقرض الآن شيئًا فشيئًا عن الاقتصاد والاستثمار وسوق العمل ومجال العلوم (الطب والهندسة والفلك .. إلخ) والتقنية الحديثة، والواقع يشهد زهد أهلها فيها فى هذه المجالات وغيرها.

والنظرة القاصرة السلبية لأهمية العربية التى تقصرها على الأهمية الدينية – لصلتها بالقرآن والدين – أمر يحرم العربية من أن تكون شريكًا فى مجالات الحياة العملية، فاللغة العربية فضلًا عن أهميتها الدينية لها أهمية اقتصادية، وسياسية، وثقافية، واجتماعية.

• فانتشار العربية يمتد معه زيادة فرص العمل والتجارة وتبادل المنافع مع الشعوب الأخرى.

- **والتعريف بالرصيد الثقافى البديع للعربية تلك اللغة الخالدة المتفردة فى البقاء منذ أكثر من ١٧ سبعة عشر قرنًا من الزمان يتيح الفرصة للسياحة والمهرجانات الثقافية ليطلع الناس على سر العظمة وأسباب الخلود.**
- **ونشر العربية ودعمها والاهتمام بها بين الشعوب العربية والإسلامية يساعد على خلق موقف موحد تجاه القضايا الكبرى فى الأمم المتحدة، بما فيه صالح الأمة العربية والإسلامية، وهذه مكاسب سياسية لا يستهان بها يمكن أن تحققها العربية.**
- **والعربية لها أهمية اجتماعية فى التواصل الاجتماعى الذى يضمن بقاء حياة اللغة بين أهلها؛ مما يعزز تماسك الأمة ووحدتها.**

اللغة عنوان السيادة الوطنية

لم تعد اللغة تقف عند حدود التواصل الاجتماعى، بل أصبحت تمثل جزءًا لا يتجزأ من السيادة الوطنية، ويكفى الإشارة إلى تجربة الاتحاد الأوروبى التى تخطت كل مقاييس الاندماج، فى المجالات السياسية والاقتصادية والأمنية والقضائية، ومع ذلك فإن هذه الوحدة قد توقفت عند حدود اللغة، حيث يعمل فى مؤسسات الاتحاد الأوروبى (الذى يشمل ٢٧ دولة وبه ٢٦ لغة) نحو ٤٠٠٠ أربعة آلاف مترجم فورى وتحريرى بغية حماية الشرعية الديمقراطية للاتحاد [٦].

- **مظاهر السيادة الوطنية واللغة:**

السيادة الوطنية تعني الوجود الحر المستقل الآمن الذي به تتحقق مصالح البلاد، بعيدًا عن التهديد، ومعناه أن تملك الدولة سلطة عليا حرة في إدارة شئونها داخليًّا وخارجيًّا، والعلاقة بين السيادة الوطنية والأمن القومي علاقة طردية؛ بمعنى أنه كلما زادت مساحة السيادة الوطنية، زادت إمكانية تحقيق الأمن والاستقرار.

ومظاهر السيادة فى الدولة الحديثة هى:

١- الحرية.

٢- الاستقلال.

٣- حق تقرير المصير.

والسيادة الوطنية مجالها نطاق حدود الدولة، تنتهى بنهاية حدودها، ولكنها - فى المقابل - لا تعنى انفصال الدولة وعزلتها عن محيطها العربى والإسلامى، والثوابت القومية وأولها اللغة؛ فاللغة هى الوعاء الحاوى للثقافة، ووسيلة من وسائل التفكير الذى يحدد رؤية العالم؛ لذلك فهى أهم ركيزة لتحصين الهوية والذات والشخصية، ومن

الواجب الدفاع عنها لحفظ المكانة والاستمرار بين الأمم؛ فإن قوة الأمة من قوة لغتها كما أشار ابن خلدون، واللغة هى الأساس المتين الذى تقوم عليه حياة الأمة كما يقول أندرسون(٧).

وسيادة الأمم تبدأ بسيادة لغاتها ومؤسساتها التى ترقى بهذه اللغات، وهذه حقيقة تؤكدها الشواهد التالية:

• فما صارت الإنجليزية لغة دولية لقدسية فيها، بل لأنَّ أهلها جعلوا منها لغة دولية، يوم أبدى بنيامين فرانكلين عام ١٧٥٠ قلقه من انتشار الألمانية فى ولاية بنسلفانيا، ويوم عارض جورج واشنطن تشجيع الهجرة إلى الولايات المتحدة مبررًا ذلك بأن المهاجرين من بين أخطارهم أنهم: "يحتفظون بلغاتهم التي أتوا بها"!

• كما عملت فرنسا وتعمل على إثبات حضورها كحضارة وقوة عالمية رئيسة عبر بسط سيطرة الفرنسية من خلال منظمة الفرانكوفونية (٨).

•ومن قبل هؤلاء استخدم اليهود فى الأندلس اللغة العبرية بوصفها وسيلة يحفظون بها طقوسهم الدينية، واستخدم الأطباء اليهود فى بولندا مصطلحات طبية عبرية بدل اللاتينية التى استخدمها الأطباء المسيحيون.

كل هذا يفسر سعى هؤلاء إلى التميز الحضارى والثقافى، وإلى الحفاظ على الهوية؛ لأن الهوية مفهوم ذو دلالة لغوية وفلسفية واجتماعية وثقافية.

وإذا كانت السيادة الوطنية تعنى: السلطة العليا المطلقة التى تتفرد وحدها بالحق فى إنشاء الخطاب الملزم المتعلق بالحكم على الأشياء والأفعال، فإن جوهر السيادة هو الحفاظ على الهوية، واللغة –

كما سبق – أول دعائم هذه الهوية، فالحفاظ على اللغة حفاظ على مقومات الأمة وبقائها وح ضارتها وسيادتها.

- **العربية والعولمة اللغوية وتحديات خطيرة:**

تبوأت اللغة العربية إبّان الفتح الإسلامى مكانة مرموقة بين لغات العالم، وارتبطت بقوة المسلمين، فكانت لغة العلم حتى القرن الخامس الهجرى، ومرت بعد ذلك بمراحل من الغزو الثقافى واللغوى، بل وتعرَّضت للاضطهاد اللغوى أيام الترك والاستيطان الأوروبى. ومع كل ذلك ظلت العربية صامدة فى كثير من المواقع، ولكنها خسرت فى مواقع أخرى؛ فقد خسرت فى تركيا وماليزيا حيث استبدلت الحروف العربية باللاتينية.

ولا يخفى أن العربية الآن فى عصر العولمة، تواجه تحديات خطيرة جدًّا، تتمثل فى تيار الإنجليزية الجارف، وتتمثل مظاهر العولمة اللغوية فى العالم العربى فيما يلى [٩]:

- التداول بالإنجليزية فى الحياة اليومية.
- كتابة لافتات المحالّ التجارية بالإنجليزية.
- التراسل عبر الانترنت والهواتف النقالة بالإنجليزية.
- اشتراط إتقان الإنجليزية للتوظيف.
- كتابة الإعلانات التجارية بالإنجليزية.
- كتابة قوائم الطعام فى المطاعم والفنادق بالإنجليزية.
- لغة الخطاب للمضيفات بدرجة رجال الأعمال فى الطائرات العربية بالإنجليزية "طيران الاتحاد نموذجًا".

هذا على المستوى المدنى، أما على المستوى الرسمى فقد كفلت كثير من التشريعات الحكومية فى البلاد العربية موقعًا متفوقًا للغة الإنجليزية من حيث اعتبارها اللغة الأجنبية الأولى فى النظم التعليمية فى البلدان العربية التى احتلتها إنجلترا، وكذلك الأمر بالنسبة للفرنسية فى البلاد العربية التى احتلتها فرنسا.

وتتمثل هيمنة اللغات الأجنبية وبخاصة الإنجليزية والفرنسية فى العالم العربى فى ما يلى:

١- تعليمها فى مراحل الطفولة المبكرة.

٢- استخدامها لغة رئيسة فى التعليم الجامعى، ولا سيّما فى العلوم الطبيعية والطبية والحاسوب والعلوم الإدارية والاقتصاد.

٣- استخدامها لغة رئيسة فى مدارس اللغات؛ إذ تُدَرَّس بها جميع المواد حتى التربية الوطنية!

٤- اعتمادها لغة رسمية فى المعاملات التجارية والقانونية التى تنفذها الدولة والشركات والمؤسسات العامة والخاصة.

أين نحن من طوفان المعلومات والمعرفة العلمية؟ وما دورنا بوصفنا عربًا فى العالم؟ أين العرب؟ وما جدوى تعلم اللغة العربية فى هذا العصر: عصر المعلومات والعولمة؟! وأين الجامعة العربية؟ وماذا سيفعل الشباب بعد تخرجهم من الجامعة، حيث لا عمل ولا وظائف ولا زواج ولا حياة؟!

ماذا عن ثروات العرب البترولية؟ ومن المستفيد منها؟ وأين نحن فى عصر العولمة والأمركة؟ وماذا عن المشروع الأمريكى "الشرق الأوسط الجديد"؟

ومع حالة الاستنفار التي يتخذها المثقفون والأكاديميون إلا أن ما يبذل في خدمة العربية ما يزال قاصرًا عن الحد المطلوب، وليست الحكومات العربية كافلة للعربية ما كفلت أمريكا وإنجلترا للإنجليزية، ولعل العراق كان آخر قلاع العربية قبل أن يلحق بفلسطين، فقد خسرت العربية حصنًا من حصونها كان يصون العربية ويكفل بتشريعاته حمايتها.

وأيضًا وضع جنوب السودان بعد فصله عن السودان وقد أعلن أن لغته الرسمية هى الإنجليزية.

وبالرغم من السوداوية والتشاؤم اللذين يسودان نفوس اللغويين والمفكرين العرب؛ فإنهم يتفاوتون فى رؤيتهم لمستقبل العربية، فبعضهم يركن إلى الآية الكريمة: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر/٩] دون عمل ،كأنما يقول: دع العربية وشأنها، فإنهامحفوظة!

وفريق آخر له رؤية الأمل مع العمل، حيث يرى هذا الفريق أنه يجدر بنا أن نعيد النظر فى قراءتنا للصراع الثقافى الرهيب فى إطار

العولمة؟ لقد خصص المفكر الأمريكي صمويل هنتنجتون فـــى كتابـــه "صدام الحضارات" جزءًا مهمًّا تناول فيه اللغة من حيث إنهـــا عنصـــر مهم من عناصر الحضارة ومكوناتها، ولما كان الرجـــل يتحـــدث عـــن الصراع الحضارى عامة؛ فإنه كان يعنى الصراع اللغـــوى علـــى نحـــو أخص، ولما كان هدف كتابه أصلًا لفت النظر إلـــى "خطـــر" الحضـــارة الإسلامية القادم، فقد احتلت اللغة العربية جانبًا كبيرًا من هذا التصور؛ إذ هى مكون هام من مكونات الدين الإسلامى، وعامـــل رئيســـى مـــن عوامل التوحُّد بين المسلمين. ولما كانت فكرته قائمة على أن توزيـــع اللغات وتزايد انتشارها أو تناقصه مرتبط بتوزيع القوى؛ كان طبيعيًّا أن يتوقع تزايد قوة العرب والمسلمين(١٠).

ويأتى رأى الأديب الإسبانى"كاميلو خوسيه سيلا" الحـــائز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٩، ليثير كثيـــرًا مـــن الجـــدل فـــى الأوساط الغربية ولا سيما دعاة العولمة؛ ومفاد هذا الـــرأي أن لغـــات العالم تتجه نحو التناقص، وأنه لن يبقى إلَّا أربع لغـــات قـــادرة علـــى الحضور العالمى، هذه اللغات هى: الإنجليزيـــة والأســـبانية والعربيـــة والصينية. وقد بنى " كاميلو خوسيه ســـيلا " رأيـــه علـــى استشـــراف مستقبلى ينطلق من الدراسات اللسانية التـــى تعـــاين مـــوت اللغـــات وتقهقرها واندثارها (١١).

ويتخذ الدكتور عبد السلام المسدى من رأى " كـــاميلو خوســـيه سيلا " منطلقًا لتناول القضية ؛ إذ يؤمِّل أن تكون العربية واحـــدة مـــن اللغات العالمية التى سيكتب لها البقاء، ويرى أن اللغة العربية قد تشكل – فى طموحاتها المستقبلية– أخطارًا حقيقية على دُعاة العولمة الثقافية وسياساتهم التهميشية، وذلك مردود إلى جملة أسباب هى:

١. احتمال تزايد الوزن الحضارى للغة العربيـــة فـــى المســـتقبل المنظور فضلا عن البعيد؛ فاللسان العربى هو اللغة القوميـــة لحـــوالى ٣٠٠ مليون، وهو يمثل إلى جانب ذلك مرجعية اعتبارية لأكثـــر مـــن مليار مسلم غير عربى كلهم يتوقون إلى اكتساب اللغة العربية، فإن لم يتقنوها لأنها ليست لغتهم القومية فإنهم فى أضعف الإيمان يناصرونها ويحتمون بنموذجها.

٢. ولكن العربية تخيف أيضًا بشىء آخر هـــو ألصـــق بالحقيقـــة العلمية القاطعة، وأعلق بمعطيات المعرفة اللسانية الحديثة، فلأول مرة فى تاريخ البشرية- على ما نعلمه من التاريخ الموثـــوق بـــه- يُكْتـــب للسان طبيعى أن يعمر حوالى سبعة عشر قرنًـــا محتفظًـــا بمنظومتـــه الصوتية والصرفية والنحوية فيطوعها جميعًا ليواكب التطور الحتمـــى فى الدلالات دون أن يتزعزع النظام الثلاثى من داخله.

٣. أن اللسان العربى حامل تراث، وناقل معرفة، وشاهد حىٌّ علـــى الجذور التى استلهم منها الغرب نهضته الحديثة فى كل العلوم النظرية والطبية والفلسفية.

لكن كل هذه الآمال مرهونة ببعث جديد للإنسان العربى نحـــو الحضـــارة والتقدم.

ولما كانت العولمة تسعى إلى أمركة كل شىء، ولما كان خطـــاب هنتنجتون يشير ضمنًا إلى تعاظم خطر العربية، فإنه كـــان طبيعيًّـــا أن يتواطأ الخطاب الثقافى والسياسى الأمريكى مع أداته الإعلامية ليخلـــق صورة مفتعلة من الصراع بين الحضارة الغربية والإسلام. وتبرز أمثلة هذا التواطؤ فى دلالة كلمة"الإرهاب" التى جعلها الغـــرب معبـــرة عـــن المسلمين والإسلام، وحدد دلالتها بأنها الاعتداء على المدنيين الآمنين،

فى حين أن دلالة الإرهاب فى السياق الإسلامى تعنى أن يكون للمسلمين قوة ردع تمنع المعتدى من العدوان على المسلمين، وهذا واضح من سياق الآية: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠)} الأنفال.

إن العربية تشهد الآن ما يمكن أن نسمِّيه "تزيفًا لغويًّا" فى ظل خطاب العولمة، بكل ما يملكه ذلك الخطاب من نفوذ سياسى واقتصادىٍّ تدعمه آلة إعلام جبَّارة، من الفضائيات والهواتف المحمولة والإنترنت... إلخ، حيث تمارس تلك الآلة عملية غسل للأدمغة، بطريقة منتظمة، ومنهجيَّة محكمة، بحيث لا تظهر فى الصورة تلك القوى المهيمنة، بل لا يُشار إليها، وكأنَّها قابعة فى بُعْدٍ غير منظور من العالم، تخطِّط للأحداث وتُدير الأمور من خلال آلة للتحكم عن بعد!

بينما نحن ماضون فى ترديدنا الببغائى لكلمات وتعبيرات ذلك الخطاب المعولم وكأنَّنا فى حالة غياب عن الوعى وفقدان للذاكرة والهوية، ولا عزاء للعرب والعربية!!

اللغة والسياسة والسيادة

السياسة هى الدراسة العملية والنظرية لفن وعلم السيطرة والحكم، ولعلَّ الصراع والصدام بين الأفكار والمذاهب السياسية، وبين الأقاليم والشعوب، هو الذى يعطى السياسة هذه الحيوية وهذا السحر.

وتتسم العملية السياسية – بما فيها من أدوار متباينة – بمساحة من الاتفاق وأخرى من الاختلاف، والتقابل بين المساحتين يشكل بيئة خصبة لنمو الحلول الوسط، أو لنمو العداء والكراهية.

وللغة دور أساسى فى خدمة الأغراض السياسية، وتشكيل الوعى السياسى؛ فإنَّ دور اللغة فى السياسة لا يقل خطرًا عن دور أسلحة الدمار فى أيدى العسكريين(١٢).

وفى معترك الصراع بعد أحداث ١١ سبتمبر، تمر العربية بمنعطف خطير، حيث أصبحت اللغة – مع طغيان أمريكا وادعاءات اليهود – لصيقة بالخداع والاحتيال والتضليل، وكل الأساليب الماكرة لسياسة أمريكا الإعلامية المعاصرة، وفى عباءتها اليهود لتبرير البطش والعدوان على السيادة الوطنية.

لقد أصبحت مهمة اللغة فى السياسة المعاصرة هى الدفاع بالباطل عن أقبح الجرائم، فقتل المدنيين العزل بالطائرات والدبابات، واحتلال الأرض، وهدم البيوت، وإتلاف الزروع، وتهجير السكان، والاعتقالات الجماعية، ومذابح جنين وصابرا وشاتيلا، كلها جرائم يدافع عنها بالباطل، حيث تطلق أمريكا وإسرائيل شعارات: حق الدفاع عن أمن إسرائيل، تأمين الوجود الإسرائيلى، الحرب ضد الإرهاب.

وتتمادى إسرائيل فى ادعاءاتها بشأن أرض فلسطين والقدس، محاولة طمس الحقائق وتهويد الأرض وإضفاء الضباب والغموض على

الحق الفلسطينى تحت شعارات مثل : "الأمن الإسـرائيلى"،"شـعب بـلا أرض لأرض بلا شعب". وتتخذ إسرائيل من التهويد اللغوى وسيلة لنزع الطابع الإسلامى والمسيحى العربى عن الأرض المقدسة، وفرض الطابع اليهودى عليها بقوة السلاح وبكل السُّبل. ومن أمثلة ذلك التهويد اللغوي تغيير اسم فلسطين إلى "أرض إسرائيل"، وتزييـف معنـى "إسـرائيل"، فيزعمون أن إسرائيل – وهو يعقوب عليه السلام – قد صـارع الـربَّ سبحانه وتعالى فصرعه؛ فسُمِّى لذلك إسرائيل! تعالى الله عمَّـا يقولـون علوًّا كبيرًا!!.

والحقيقة المقرَّرة فى علم اللغة أنَّ "إيل" هو اسم الله عز وجـل فـى العبرية، وأُضيف إليه كلمة "إسر" التى تعنى فى اللغات السامية (ومنهـا العربية والعبرية): القوَّة والشدَّة، فيكون معنى "إسـرائيل: قـوَّة الله، أو القوى بالله.

ومن أبرز الأمثلة على تزييف اليهود للحقائق فى إطار التهويد اللغوى كلمة "الساميَّة"، حيث يزعم اليهود أنَّها وصفٌ لبنى إسرائيل، والحقُّ أنَّها وَصْفٌ لجميع الشعوب التى تتكلَّم اللغات "الساميَّة"، أى المنسـوبة إلـى سام بن نوح عليه السلام، ومن أقدمهم الشعب الكنعانى فـى فلسـطين، والشعب العربى فى جزيرة العرب، وليس مصطلح "السامية" حِكْرًا علـى شعب إسرائيل كما زعموا، ثم تمادَوْا فى التزييف والتزوير فأطلقوا تعبير "معاداة الساميَّة" وجعلوه سيفًا على رقاب كلِّ من يوجِّه نقدًا إلى إسرائيل أو يشكِّك فى الأساطير التى قام عليها الكيان الصهيونى، وعلى رأسـها أسطورة كون الساميَّة مُرادِفةً لليهودية!

يُضاف إلى ذلك استمرار الدولة الصهيونية فى تهويد أسماء الأمـاكن الفلسطينية، ومن ذلك:

الأسماء العربية	التسميات اليهوية
مدينة القدس	عيروشلايم
مدينة الخليل	عير حبرون
مدينة نابلس	عير شكيم
مدينة جنين	عير جنيم
منطقة حيفا وعكا حتى الليطانى	أشير
منطقة طبرية وبيسان	بساكر
منطقة رام الله	أفرايم
منطقة القدس وشمالها	بنيامين
منطقة جنوب القدس – الخليل	يهودا
جبل الرحمة	هار رحاماه
تل أبى هريرة	هارور
تل سيحان	شيحان

إلى آخر هذا الكذب المفضوح، بهدف فرض الهيمنة الصهيونية والعبرية، وطمس الهويَّة العربية للأرض الفلسطينية [١٣].

وسياسة أمريكا وإسرائيل تقوم على حشد كمٍّ هائل من الأكاذيب والمراوغات، بما فى ذلك اللجوء إلى التشبيهات والاستعارات الزائفة التى تُحَقِّرُ من شأن الفلسطينيين وتسلبهم كل حقٍّ إنسانى، فالفلسطينيون فى نظر اليهود جرادٌ بالقياس إلى الإسرائيليين، حيث تشير هذه الاستعارة إلى معنى الإبادة.

كما يُشبِّه الإسرائيليون العرب بالصراصير، وقد وصف "باراك" مقاتلى حزب الله بقوله: "إن الحرب ضدهم مثل الحرب ضد البعوض".

لقد حولهم إلى حشرات، ومثل هذه الاستعارات القبيحة استخدمها الصهاينة لوصف لبنان فى نحو قولهم : "المستنقع اللبنانى".

فى حين أنهم يطلقون على أنفسهم أوصافًا فيها تمجيدٌ لهم، بأنهم دولة الديمقراطية والحضارة، وواحة الديمقراطية فى الشرق الأوسط، كما يصطفون أفضل التعبيرات السياسية لأنفسهم، مثل: الصقور والحمائم.

أيضًا تستخدم أمريكا الشعارات البرَّاقة فى حربها الانتقامية ضد المسلمين والعرب، من هذه الشعارات: القضاء على محور الشر، حماية قيم الديمقراطية، حماية الحرية، وكان من مبرراتهم للحرب على العراق تخليص المنطقة من ديكتاتورية صدام حسين وحماية دول الجوار من اعتداءاته، ونفس الأمر يمارس الآن ضد إيران [١٤].

وكلها ادعاءات باطلة وشائعات مُغرضة، تحاول إسرائيل أن تجنى من ورائها أهدافًا سياسية، تتمثل فى السيطرة على المنطقة، وإقامة دولة إسرائيل الكبرى، وتحاول أمريكا أن تُعيد رسم خريطة المنطقة لتحقيق مصالحها، للسيطرة على البترول والثروات، وإضعاف الدول العربية لضمان حماية حليفتها إسرائيل وتعزيز تفوقها على العرب. وفى كل ذلك إضعاف للسيادة الوطنية العربية وزعزعة لها.

وهكذا يظهر أن اللغة مرآة فاضحة للنوايا والأفعال، فحين تسوء النوايا وتنتكس الأفعال، تنحدر اللغة وتسقط الكلمات فى أغوار المكر السيئ.

ومن الخداع اللغوى استخدام أمريكا لتعبيرات مضلِّلة أثناء الحرب على العراق، مثل:

- **دروع بشرية**: وظاهر معناه: يقصد به الجماعات المدنية المعارضة للحرب، والتى جاءت إلى العراق لمحاولة وقف الحرب الأمريكية، ومن بينهم مواطنون أمريكيون وبريطانيون، أما الحقيقة المستترة تحت هذا التعبير المحمود النبيل فى ظاهره ــ كغطاء أخلاقى ــ فهى أنهم كانوا عناصر مخابراتية تعمل لصالح قوات الغزو.

ومن استخدام اللغة فى التأثير النفسى فى حرب أمريكا على العراق، التعبيرات التالية:

- **الأسلحة الذكية**: للتعبير عن القدرة الفائقة فى إصابة الهدف وتمييزه.
- **الصدمة والرعب**: للتعبير عن القوة الطاغية التى تفوق كل توقع ولا يمكن مقاومتها.
- **نيران صديقة**: لنفى قدرة الخصم على إصابة أى أهداف.

فاللغة كما أنها سلاح لبناء الروح المعنوية، فهى أيضًا سلاح يصنع الانهيار والضعف والاستسلام(١٥).

وهكذا تؤثر السياسة فى اللغة تأثيرًا بالغًا، ويمكن إجمال هذا الأثر فى الحقائق التالية:

١- أن ضياع اللغة أو ضعفها ضياع للقومية أو إضعاف لها؛ وبالتالى إضعاف للسيادة الوطنية، وأن الحفاظ على اللغة الوطنية من أقوى سبل المحافظة على خصوصية كل شعب وقوميته وأصالته.

٢- أن السياسة تعصف بالواقع اللغوى عصفًا رهيبًا، فالأقوياء لغتهم لها التمكين والسيطرة والشيوع، أما الضعفاء فلغتهم لها الضعف والتنحية والإزاحة من مواقع القوَّة والتأثير؛ فالتاريخ يصنعه الأقوياء.

٣- أن اللغة من أقوى عوامل المحافظة على الهوية والقومية والسيادة، ومن الخطورة بمكان أن يفرِّط الإنسان فى لغته؛ لأن معنى هذا أنه يفرِّط فى ذاته وتراثه وأصالته، ومصيره الذوبان فى الآخر والتلاشى من الحياة!

- الصراع اللغوى والسيادة الوطنية:

عن طريق اللغة يكون البناء الثقافى للشعب، وحين تتعدد اللغة بسبب الاستعمار مثلًا، وتوجد لغة رسمية ولغة غير رسمية، ولكل لغة منهما تراثها الثقافى، فإن هذه الازدواجية تؤدى إلى لون من الصراع بين لغة المستعمر واللغة الوطنية، حيث يجد المواطن نفسه بين اتجاهين:

الأول: اتجاه اللغة الوطنية التى تحمل تراثه وأصالته، بجذورها الضاربة فى التاريخ، وما تحمل من رصيد ثقافى وعادات وتقاليد تمثل هويته وخصوصيته التى تميزه عن غيره من الدول.

الثانى: اتجاه لغة المستعمر، فهى اللغة الرسمية التى يتم التعامل بها فى المصالح والمؤسسات المختلفة، والتعليم وغير ذلك، ولا يستطيع المواطن أن يعزل نفسه عن لغة المستعمر لأنها لصيقة بمصالحه وشئون حياته.والأمثلة التطبيقية على هذا الصراع كثيرة ففى إطار اللغتين الإنجليزية والفرنسية ظهر الصراع اللغوى واضحًا فى المناطق التى احتلتها فرنسا وإنجلترا خلال القرن التاسع عشر، وتزايد هذا

الصراع باطراد مع تزايد النشاط الاستعمارى لإنجلترا وفرنسا لكثير من بلدان العالم، وتقوم أمريكا بهذا الدور فى الواقع المعاصر فى العراق وأفغانستان.

وفى إطار اللغة العربية نجد أن الجزائر فى فترة الاحتلال الفرنسى قد تعرضت لصراع لغوى لاهب، لقد اجتهد الاستعمار الفرنسى فى تعليم الناشئة اللغة الفرنسية، وجعلها لغة التعامل فى المؤسسات (اللغة الرسمية) مع تنحية العربية عن كل موقع رسمى، وذلك ليقين الاستعمار الفرنسى أن إتقان العربية يعنى الاتصال بالحضارة العربية والإسلامية، وهذا يقوِّى روابط الشعب بجذور الماضى وتراثه وأصالته، مما يقف سدًّا منيعًا أمام تحقيق رغبة الاستعمار الفرنسى التى تهدف إلى قطع صلة المواطن الجزائرى بأصله وتراثه، أو على الأقل إضعاف هذه الصلة لدرجة أن ينعدم تأثيرها، ويذوب الشعب الجزائرى فى اللغة الفرنسية وثقافتها وتقاليدها، وبهذا تتم عملية الفَرْنَسَة لهذا الشعب، من خلال دعم وجود اللغة الفرنسية وإضعاف وجود اللغة العربية فى الجزائر وتنحيتها عن كثير من المواقع(١٦).

وظل هذا الصراع ملتهبًا بعد استقلال الجزائر سنة ١٩٦٢م، حيث كان عليها أن تجابه قضية خطيرة، وهى إِعادة اللغة العربية إلى المدرسة الجزائرية، وكان الأمر صعبًا؛ لأن هذه المدارس كانت لا زالت مفرنسة، وعملية التعريب ليست سهلة، وتحتاج إلى وقت، ولا يمكن إنجازها بين عشية وضحاها؛ ومن هنا احتدم الصراع اللغوى بين اللغة الرسمية، لغة التعليم، لغة المستعمر التى مكِّن لها غاية التمكين فى المدارس والمؤسسات، واللغة الوطنية (اللغة العربية) التى حوصرت فى

أضيق حدود ممكنة من التعامل، حتى أصبحت ثقيلة على لسان كثير من الناشئة الذين تعلموا فى مدارس مفرنسة فى كل شىء.

وواصلت الإدارة الاستعمارية محاربتها للغة العربية وفرض اللغة الفرنسية فى الإدارة، والمحيط الاجتماعى، وأجهزة الإعلام، وكل المرافق العامة. وقد ورد فى قرار فرنسى صدر سنة ١٨٤٩م ما يلى :

" إن لغتنا هى اللغة الحاكمة ... فإن قضاءنا المدنى والعقابى يصدر أحكامه على العرب الذين يقفون فى ساحته بهذه اللغة، وبهذه اللغة يجب أن تكتب جميع العقود، وليس لنا أن نتنازل عن حقوق لغتنا، فإن أهم الأمور التى ينبغى أن يعتنى بها قبل كل شىء، هو السعى وراء جعل اللغة الفرنسية عامة بين الجزائريين الذين قد عقدنا العزم على استمالتهم إلينا وإدماجهم فينا وجعلهم فرنسيين "(١٧).

لقد وضعت السلطات الاستعمارية خطة محكمة لمحاربة اللغة العربية، باعتبارها المنافس الخطير للغة الفرنسية، حتى تضع الجزائريين الرافضين للغة الفرنسية فى موقف صعب: بين الفرنسية، أو الجهل والأمية، فانتقمت من الجزائريين الرافضين للغة الفرنسية باعتبارها لغة العدو المحتل، بالقضاء على مراكز الثقافة العربية الإسلامية، ومدارس اللغة العربية، وحولتها إلى معاهد للثقافة الفرنسية، ومراكز للتبشير، وثكنات للجيش، ومساكن للمستوطنين، والباقى هدمته بدعوى إعادة تخطيط المدن الجزائرية، وإعادة بنائها بطرق عمرانية عصرية .

- من صور القمع الاستعمارى للعربية: (الاستعمار الفرنسى فى الجزائر، الاستعمار الصهيونى فى فلسطين)

– الاستعمار الفرنسى فى الجزائر:

١- حظر استعمال اللغة العربية فى المجال الرسمى حظرًا مطلقًا، ونفذ ذلك بدقة، ونتج عنه أن أصبح المتعلم باللغة العربية والأميُّ فى درجة واحدة أمام الإدارة الفرنسية، والهدف من هذا الإجراء دفع الجزائريين إلى تعلم اللغة الفرنسية لقضاء حاجاتهم.

٢- عدم السماح للجزائريين بتأسيس مدارس ومعاهد تعليم اللغة العربية وثقافتها، والاكتفاء ببعض الكتاتيب لحفظ القرآن الكريم فقط دون تفسيره أو تدريس المواد الاجتماعية، وكل من يخرج عن هذا الشرط يغلق كُتَّابه ويغرَّم ويُزَجُّ به فى السجون .

٣- وضع الكتب المدرسية باللهجة العامية إرضاءً لبعض الجزائريين، هذه العامية هى فى الحقيقة خليط من العربية ولهجاتها، والبربرية، والتركية، والفرنسية، والإيطالية، والأسبانية، واعتبرت هى اللغة الجزائرية الحية بعد اللغة الفرنسية، لانتشارها بين الناس أكثر من غيرها.

٤- فرض حصار محكم على تسلل الثقافة العربية الإسلامية من المشرق، حتى لا تخلق لهم مشاكل فى توجههم نحو فصل الشعب الجزائرى عن أمته العربية.

٥- ثم صدور قرار ١٩٣٨م، الذى دعم خطة محاربة اللغة العربية التى بدأت تستعيد مكانتها مع تطور الحركة الوطنية الجزائرية الاستقلالية والإصلاحية ومطالبها.

هذا القرار الذى ينص ويؤكد على اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية فى الجزائر، ولا يجوز تعليمها فى مدارس التعليم سواء كانت حكومية أو شعبية[١٨].

كل هذا نابع من إدراكهم أن اللغة هى وعاء الثقافة والهوية والأصالة؛ لذلك قاموا بدعم لغتهم فى العالم، وأقاموا لذلك مؤسسات وهيئات كان لها أبلغ الأثر فى دعم وتقوية الوجود اللغوى لهم.

أمَّا الجزائريون فلم يقفوا مكتوفى الأيدى، بل قاوموا التغريب، وحين أقامت فرنسا احتفالًا بمرور مائة عام على احتلالها للجزائر، وأن الجزائر أصبحت فرنسية اللسان والفكر والثقافة، هبَّ علماء الجزائر من خلال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فى حركة تقاوم هذه الفرنسة وهذا التغريب الثقافى واللغوى، من خلال نشر الزوايا التى تعلِّم القرآن الكريم الذى هو أساس العربية، وكانت لهم أنشودة تعبِّر عن روح المقاومة لمحاولات مسخ الهوية الجزائرية، وكان مطلعها:

شعب الجزائر مسلمٌ وإلى العروبة ينتسبْ

من قال لا أو حاد عن أصله فقد كَذَبْ

وبالفعل نجحت هذه الحركة فى بعث العربية وإحيائها، والمحافظة على الهوية العربية لشعب الجزائر.

ولكن حملات التغريب اللغوى ما زالت مستمرة باتساع العالم العربى، وما زالت جهودنا قاصرة عن مواجهة تلك الحملات.

- الاستعمار الصهيونى فى فلسطين:

راجع بتفصيل ص ١٦، ١٧، ١٨ من الدراسة.

اللغة والقوة والسيادة

- **عوامل قوة اللغة ومعايير السيادة اللغوية:**

إنَّ ما يعطى اللغة قوتها وحيويتها هو وعى الأمة وحرصها على رعاية لغتها وحمايتها وانتشارها، واليقين الجازم بأنها صالحة لمقتضيات العصر ومعطيات الحضارة ومستجدَّات التطور، وتلك أهداف كبرى تخطط لها الدول التى تسعى إلى السيادة، فتقيم المؤسسات المتخصصة، وتبنى مراكز البحوث المتقدمة، وتؤسس الهيئات الفنية لتعليم اللغة وتطوير أساليب تدريسها، وترجمة المصطلحات الأجنبية.

فنهضة اللغة وقوتها تقوم على جناحين: جناح الأدب وجناح العلم. وموقع العربية من هذين الجناحين «أن اللغة العربية التى تمتلك جناحًا قويًّا فى الأدب لا تمتلك جناحًا مماثلًا فى العلم والتقدم العلمى؛ ولأن الطائر لا يستطيع التحليق بجناح واحد أبدًا فلذلك لا تتحقق النهضة اللغوية إلا بقوة الجناحين: الأدب والعلم» (١٩).

فعندما كان العرب أمَّة قويَّة مزدهرة، كانت العربية فى أوج قوَّتها وازدهارها، وأغنت اللغة العربية العالم بالعلوم والمعارف، وأثبتت قدرتها على الانتشار والتوسع والاستيعاب والتواصل الفكرى والإنسانى، واستطاعت لغة القرآن الكريم أن تحقق متطلبات المجتمع التاريخية عبر العصور، فى كل المجالات: الدينية، والثقافية، والعلمية، والاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والعسكرية، فى عصر النبوة، ثم فى عصر الخلافة الراشدة، ثم فى العصر الأموى وما رافقه من تعريب الدواوين ونظم الإدارة للمجتمعات المختلفة، والأقاليم والجيوش والحياة العامة، كما استجابت اللغة لحاجات الحضارة فى العصر العباسى وما واكبه من

حركة الترجمة، بل كانت العربية لا غيرها لغة العلم والبحث العلمى فى الطب والعلوم والرياضيات والفلك والهندسة وغيرها.

لقد بلغت الحضارة الإسلامية فى العصر الأموى آفاقًا حضارية غير مسبوقة، فقد امتدَّت رقعة العالم الإسلامى من حدود الصين والهند وباكستان شرقًا حتى حدود فرنسا والأندلس غربًا، وخلال قرنين من وفاة نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم كانت صناعة الكتب منتشرة فى كل أنحاء العالم الإسلامى، وكانت الحضارة الإسلامية تدور حول الكتب، فقد كانت المكتبات العامة والخاصة منتشرة فى كل مكان، وكانت المكتبات منتشرة فى كل البلاد الإسلامية بدمشق والقاهرة وحلب وإيران ووسط آسيا وبلاد الرافدين والأندلس وشمال أفريقيا، وكان الكتاب الذى يصدر فى دمشق أو بغداد تحمله القوافل التجارية ليصل إلى أسبانيا فى غضون شهر، وكانت هذه الكتب تتناول شتى فروع المعرفة من علوم القرآن وتفاسيره واللغة العربية والشعر والرحلات والسير والتراث والتاريخ وغيرها من مجالات الفكر والثقافة والعلوم، هذه النهضة الثقافية الزاهرة أدَّت إلى انتشار اللغة العربية وعلومها وثقافتها فى شتى بقاع العالم.

لقد كانت القوَّة السياسية للدولة الإسلامية، والرواج الاقتصادي هو سر الوحدة الثقافية وانتشار اللغة العربية، التى كانت اللغة العلمية والثقافية فى شتى الديار الإسلامية، حيث بسط الإسلام سلطانه على كثير من بقاع الأرض، ومع انتشار الإسلام وامتداد دولته وتعاظم ثقلها السياسى أصبحت العربية لغة عالمية؛ لسببين رئيسيين:

أولهما: أن العربية كانت لغة الدين، ولغة مصدرى التشريع الأساسيين فى الإسلام: القرآن الكريم، والسُّنة النبوية، كما أن الصلاة لا تتم إلَّا بالعربية.

والسبب الثانى: هو تعريب الدواوين الحكومية فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان، وبذلك أصبحت العربية لغة السياسة والإدارة.

وعلى الرغم من أن كثيرًا من الأمم الأعجمية بقيت على هويتها ولم تتقبل الهوية العربية، مثل قسم كبير من الأمازيغ والترك والكرد والفرس وبعض الأشوريين والسريان، فإنها تقبلت اللغة العربية وتكلمتها بطلاقة إلى جانب لغتها الأم؛ وذلك لأن بعضها اعتنق الإسلام مثل الأكراد والفرس والأتراك، وحتى الذين بقوا على الدين المسيحى أو اليهودى أو غيرهما، تكلموا العربية كلغة رئيسة إلى جانب لغتهم الأم، بعد أن أصبحت لغة العلم والأدب خلال العصر الذهبى للدولة الإسلامية، تحت ظل الخلافة الأموية ثم العباسيّة، بل إن تلك الشعوب اقتبست الأبجدية العربية فى كتابة لغتها.

وعلى الرغم من انتشار العربية فى العصور التالية كلغة دينية، إلَّا أنها تراجعت وانحسرت واقتصرت على أداء الشعائر الدينية؛ لأنَّ الدولة الإسلامية ضعُفت وتفككت إلى دويلات كثيرة، كما تضاءل دور العرب فى العلم والابتكار، وتضاءل دور العربية فى المعرفة، وأصابها عجز أهلها، ولم تعد العربية قادرة على إنتاج المعرفة والعلم، وأخذت الدولة الإسلامية فى الأفول، لتحمل شعوب أخرى مشعل الحضارة؛ فتنتشر لغاتُها وآدابها وعلومها.

- **ضعف الأمم يقود إلى ضعف اللغة:**

الإنسان العربىّ يعيش اليوم أزمة هروب من الذات، وينغمس فى حالة اغتراب عن أصالته ووجوده، فانعكست هذه الأزمة سلبًا على الواقع اللغوى، ووصمت اللغة بالعجز والقصور عن مواكبة التطور العلمىّ والحضارىّ؛ والعجز الحقيقىّ ليس فى اللغة بل فى أهليها الناطقين بها والقيمين عليها.

إنّ الأمة التى لا تنتج العلم، تضعف لغتها وتنكمش وتنعزل، وفى ضعف اللغة ضعفٌ للدولة كما هو معلومٌ لدى علماء الاجتماع اللغوى، وعلماء الاجتماع السياسى بصورة عامة؛ فاللغة تقوى وتكتسب المناعة ضدَّ المؤثِّرات الخارجية حين تكون لغة العلم ولغة المعرفة ولغة الحياة فتفرض نفسها وتملى شروطها، ولا تذوب فى لغة أخرى فتفقد هويتها وتتخلّى عن رسالتها.

لقد انقرضت أمم بكاملها عندما اجتاحها الاستعمار اللغوى كما حدث فى أستراليا ونيوزيلندا، ومثلما انقرضت لغات الهنود الحمر وغيرهم من الشعوب.

- **تراجع العربية مرآة لتراجع أهلها:**

أيهما فى أزمة: اللغة العربية أم الإنسان العربى؟

اللغة العربية فى أزمة؛ لأن الإنسان العربى فى أزمة، فأحوال اللغة لا تنفصل عن الإنسان، إذا وجدنا إنسانًا أميًّا لم يتعلم؛ فاللغة العربية فى أزمة ، إذا وجدنا إنسانًا لا يُحْسِن تعلم لغته؛ لأن المدرسة لا تعلِّم والجامعة لا تعلِّم، فالعربية فى أزمة، إذا وجدنا لغة لا يحترمها قومها: فى المدرسة، فى الجامعة، فى الإعلام، فى الصحافة، فى أى منبر تُستخدم فيه اللغة فالعربية فى أزمة، ويكفى أن ننظر إلى صحفنا

التى أصبحت الآن تُكتب بالعامية، وإلى برامج الإذاعة والتليفزيون والفضائيات بالعامية القبيحة، العامية الساقطة، وليس مجرد العامية التى كنا نجدها قديمًا فى الأفلام المصرية؛ فنجد الاحترام وأدب الحوار واللغة السليمة وإن كانت عامية. أما الآن فالشتائم والتعبيرات البذيئة موجودة فى الأغانى، وفى الأفلام، وفى المسرحيات. إن المساحة المُعْطاة للغة الفصحى فى كل أجهزة الدولة مساحة قليلة جدًّا تتمثل فى نشرات الأخبار أو فى التلاوات القرآنية أو فى بعض البرامج التراثية والعلمية والثقافية، لكن الكثرة الكاثرة تُقَدَّم بعامية هى عامية قاع المجتمع؛ لذلك تكثر فيها البذاءة، وتكثر فيها السوقية.. إذا كان الحال كذلك، فإن العربية فى أزمة؛ لأن أهليها فى أزمة.

«لقد انكمش قاموس اللغة العربية من ١٢ مليون كلمة إلى ١٢ ألف كلمة بسبب التراجع المعرفى والثقافى والإبداعى للأمة العربية»[٢٠].

ومن خلال ملاحظة المجتمعات المتقدّمة اليوم، يمكن تلخيص أبرز معالم السيادة اللغوية، فى العناصر التالية:

١-الاستعمال الكامل للُّغة الوطنية على المستويين الشفهى والكتابي.

٢-احترام اللغة الوطنية والاعتزاز بها والغيرة عليها والدفاع عنها.

٣-معارضة استعمال لغة أجنبية بين مواطنى تلك المجتمعات.

٤-شعور عفوى قوى لدى المواطنين بالأولوية الكبرى لاستعمال اللغة الوطنية فى مجتمعاتهم.

٥-وجود سياسات وطنية منهجية لدى السلطات والمؤسسات لترجمة المصطلحات والكلمات الأجنبية الجديدة إلى اللغة الوطنية.

٦-اقتران اللغة الوطنية بتحديد هويات الأفراد والجماعات فى تلك المجتمعات.

والسؤال الذى يفرض نفسه فى هذا السياق هو: أين اللغة العربية من السيادة اللغوية؟

هل نحن نسعى بإرادتنا إلى تدمير لغتنا وثقافتنا بسلبيتنا وخمولنا واستسلامنا؟! وهل من أمل؟

إن كان هذا ما يصنعه العدو بلغتنا تحقيقًا لمصالحه، فأين نحن؟ أين دورنا فى المقاومة والمحافظة على أهم عناصر الهوية وأخطرها وهى اللغة؟

لماذا نحرم أنفسنا عمدًا من عضوية نادى المعلومات العالمى، فى حين تعمل الأمم الأخرى جاهدة للوصول إلى موقع متميز على الساحة العالمية؟!

وقد رأينا كيف تهتم كل أمة بدعم لغتها والتمكين لها فى حلبة الصراع [٢١].

وحسبنا أن نتدبر موقف اليابان التى تسعى سعيًا حثيثًا لمواجهة الهيمنة الأمريكية على الإنترنت، وكانت البداية فى مشروع الجيل الخامس الذى أطلقته اليابان فى بداية الثمانينات، كردّ فعل تكنولوجى يهدف إلى كسر سيادة الإنجليزية، وقوبلت فى سعيها هذا بعقبات سياسية واقتصادية من جانب أمريكا لعرقلة هذا المشروع، إلا أن اليابان

لم تستسلم لهذه الضغوط، وركزت على تكنولوجيا الترجمة الآلية مستغلة تفوقها، ولا شك أن نجاح مشروع الترجمة الآلية والجيل الخامس سيكسر حاجز القطب اللغوى الأوحد، حتى يصبح بإمكانك – وأنت عربى أو فرنسى – أن تفتح جهاز الكمبيوتر فيقوم الجهاز بتحويل كل الكلام المكتوب بالإنجليزية إلى لغتك التى تتحدث بها.

وعلينا أن نستفيد من هذه الجهود ونحذو حذوها، بغية تحقيق الأمن اللغوى، حفاظًا على لغتنا الخالدة وحماية لها من طوفان التغريب الذى لن يقتصر على اللغة وحدها، بل سيمتد إلى الثقافة وأنماط التفكير والجذور والمنابع التى تنتمى إليها رؤيتنا للعالم.

وفى مواجهة هذه التحديات ينبغى علينا أن ننشط فيما يلى:

- توثيق صلات العربية بفروع المعرفة المختلفة، مثل الإعلام، والسياسة، والاجتماع (علم اللغة الاجتماعى)، والفلسفة، وكل نواحى المعرفة الإنسانية والعلمية.
- دعم وتنمية الجهود التى تهدف إلى تعريب الكمبيوتر، وليكن شعارنا: التعريب فى مواجهة التغريب.
- توثيق علاقات اللغة العربية بالفنون من منظور أوسع، خاصةً وقد اختصرت تكنولوجيا المعلومات المسافة الفاصلة بين العلم والفن فى عالمنا المعاصر.
- وعلى العربية أن تستفيد فى مسائل التنظيم والترتيب بما وصلت إليه علوم الرياضيات والإحصاء والهندسة.

من هنا تتأكد أهمية تكاتف الجهود لوضع العربية وما تشمله من معارف وثقافات على قاعدة معلومات منظمة تكون مهيأة للمعالجة الآلية

بالكمبيوتر؛ وذلك لأن أهمية أى لغة على الإنترنت بقدر ما تقدم من معلومات وأفكار تحملها هذه اللغة وإنتاج معرفى يفيد البشرية.

ولا مجال للحديث عن نهضة لغوية إلَّا بقدر ما نكون فى موقع التأثير إن أردنا الحياة لنا وللغتنا العربية.

إن قوة اللغة العربية تحتاج إلى بنْيات داعمة:

- بنية تحتية اقتصادية تمكِّن للتخطيط اللغوى والسياسات اللغوية حتى ترى النور.
- بنية فوقية سياسية تملك سلطة القرار الذى يُمكِّن للغة ويحميها من الإقصاء أو التهميش.
- بنية داعمة فكريًّا لربطها بالفكر وقضاياه، وتوحيد مصطلحات العربية فى مجال الفكر والثقافة، وتحديد رؤية واضحة ورسالة محددة، وتحرير المصطلحات الفكرية بما يعبر عن الهوية الثقافية العربية والإسلامية؛ حتى يكون لفكر العربية كيان مميز فكريًّا، متماسك الهوية يقوى على المواجهة، وقادر على التأثير فى الآخر(٢٢).
- بنية داعمة اجتماعيًّا.
- إن العربية تمتلك – أكثر من غيرها من اللغات – مقومات البقاء والتطور والازدهار؛ لأنها لغة مقدسة فى نظر أبنائها، وقداستها مستمدة من ارتباطها بكلام الله عز وجل: القرآن الكريم، وهذه القداسة تجعل منها جزءًا من الدين، والدين هو أهم مقومات الهوية وأقواها حضورًا عند الإنسان فى كل زمان ومكان، فلماذا نرضى للغة القرآن هذا الوضع الذي آلت إليه؟

وفى مقابل عناصر القوة التى تمتلكها العربية، هناك عناصر ضعف تحيط بها، وهذه العناصر لا علاقة لها مباشرة بالعربية نفسها،

بل هى مرتبطة بأصحابها من ناحية، وبالظروف الخارجية من ناحية أخرى. ويكمن سر هذا الضعف الذى أصاب العربية فى الهزيمة النفسية والحضارية للأمة العربية؛ فإن أى لغة لا يمكن أن تصمد فى وجه أى تحدٍّ ولا يكون لها حضور إذا كان أصحابُها مهزومين حضاريًّا، وعلى أصحاب اللُّغة أن يبدأوا بالنهوض من عثرتهم، والإيمان بقدراتهم ورسالتهم الحضارية، وأول علامة من علامات النهوض الاعتزاز بلغتهم، والحرص على إحيائها فى مختلف المجالات.

يقول ابن خلدون: "المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب، فى شعاره وزيِّه ونحلته، وسائر أحواله وعوائده" (٢٣). وها نحن أولاء نرى مظاهر الهزيمة: فالعرب والمسلمون اليوم قد أصيبوا بانهزامية فى لغتهم وفى أخلاقهم وسائر أحوالهم، ومن مظاهر الانهزامية فى اللغة: تعميم اللغات الأجنبية فى التعليم والبحث العلمي، وانتشارها فى أسماء المحلات والسلع والأطعمة، وكذلك التحدث بها على سبيل الحذلقة وإظهار الثقافة، كما أن النخب والمثقفين والساسة وغيرهم ممَّن يوجِّهون الرأى العام ويؤثرون فيه، كل هؤلاء غائبون أو مغيَّبون عن قضية العربية، حتى أسفر ذلك الغياب عن نتائج كارثية على العربية، حيث طغى عليها الإهمال، وتراجعت أمام طوفان العولمة اللغوية، وصار يُنظَر إليها نظرة دونية، سواء فى مؤسسات البحث العلمى أو التعليم بمختلف مراحله، أو الإعلام بمختلف صوره.

وإذا كان هذا غيابًا للوعى اللغوى، فإنه جزء من حالة الغياب بل الغيبوبة الشاملة، على المستوى الحضارى والعلمى والسياسى والثقافى والاقتصادى.

إن لغتنا أعز من أن نضيِّعها؛ فهى لغة كريمة نزل بهـا أفضـل كتاب، وهى الوعاء لعلوم الدين، وذخائر التـراث، ولا تتـأتى معرفـة القرآن والسنة إلَّا بها، ولا يتم فهم علومهما ومقاصدهما بدونها، فهـى أداة علم الشريعة ومفتاح الفقه فى الدين، وإذا أضاعت أمةٌ لسانها فقد أضاعت تاريخها وحضارتها، وأضاعت حاضـرها ومسـتقبلها، ذلـك مصيرنا إذا لم ندرك المأزق الحضارى الـذى تعانيـه لغتنـا وهويتنـا وسيادة أمتنا. فأين نحن فى معترك الحضارة؟ وأين موقعنا وموقع لغتنا على خريطة العالم؟!.

ولا يزال السؤال يطرح نفسه بإلحاح شديد:

أين أبناء العربية من لغتهم ؟! من عربيـة القـرآن التـى تمثـل أصالتهم وهويتهم؟!

ولعل هذا الطرح ينجح – ولو بعض النجاح – فى إثـارة همـة أبنـاء العربية لنصرة العربية، وبخاصة فى هذا الواقع المر الأليم لحالنا وحال عربيتنا.

وكأنى بعربية القرآن تستغيث بأهلها أن لا يتنكـروا لهـا وأن لا يرغبوا عنها إلى غيرها: فى حديثهم إذا ما تحدثوا، وإعلانـاتهم إذا مـا أعلنوا، وفى كتاباتهم إذا ما كتبوا، عربيتنا تنادينا بأنَّ فىَّ هويتكم وفـىَّ أصالتكم، وفىَّ ذكركم، وأنا وعاء قرآن ربكم، وفى حياتى حياة لكم.

وما يعقلها إلا العالمون

وما يتذكر إلا أولو الألباب

والله المستعان

الهـــوامـــش

(١) نحن والآخر: قراءة معرفية باتجاهين/ صبحي حديـــدي ... (وآخ)، إصدار مهرجان جرش الحادي والعشـــرين، ٢٠٠٢م، ص١٩.

(٢) دموع الشوباشى بين يدى سيبويه/ محمد محمد داود.– القاهرة : يمامة، ٢٠٠٤م، ص٣٢.

(٣) راجع بتوسع: خاطرات مؤتلفات فى اللغـــة والثقافـــة/ كمال بشر.– القاهرة: دار غريب، ١٩٩٥م، ص٧٠.

(٤) دموع الشوباشى بين يدى سيبويه/ محمد محمـــد داود. – القاهرة: يمامة، ٢٠٠٤م، ص١٧.

(٥) اللغة العربيـــة وخطـــر الانقـــراض/ علـــى القاســـمى، WWW.diwanalarab.Com .

(٦) المستقبل ــ العدد ٣٢٣٢ ــ رأى وفكر، ص١٩.

(٧) اللغة والهوية (قومية – إثنية – دينية)/ جون جوزيف، ترجمة عبد النور خراقى.– الكويـــت: (سلســـلة عـــالم المعرفة، أغسطس ٢٠٠٧، ع ٣٤٢)، ص ٣٩٨.

(٨) الوكالـــــــة الفرانكوفونيـــــــة بالإنترنـــــــت WWW.Francophonie.Org.Com

(٩) العولمة اللغوية، وليد العناتي، مجلة البصائر، جامعـــة بترا: الأردن (ع٢، م٦)، ٢٠٠٤م.

(١٠) صدام الحضارات/ صمويل هنتجتون، ترجمـــة مالـــك عبيد أبو شهيوة، محمود محمد خلف.– ليبيـــا: الـــدار الجماهيرية للنشر، ١٩٩٨م، ص ٩٨: ١٠٦.

(١١) العولمة والعولمة المضادة/ عبد السلام المسـدي.- القاهرة: مطابع لوتس، ١٩٩٩م، ص ٣٩٠.

(١٢) حرب الكلمات فى الغزو الأمريكـى للعـراق/ محمـد محمد داود .- القاهرة : دار غريب، ٢٠٠٣م ، ص ٨.

(١٣) اللغة فى محراب القدس: شـريك المقاومـة وسـجل الحقائق، محمد محمد داود.- القاهرة: دار الهلال (كتاب الهلال؛٧٢٧)، يوليو ٢٠١١م، ص٢١: ٣٦ (صـفحات متفرقة).

(١٤) اللغة والسياسة فى عالم ما بعد ١١ سبتمبر/ محمـد محمد داود. – القـاهرة : دار غريـب، ٢٠٠٣م، ص ١٤٣.

مجلة مختارات إسرائيلية .- العدد ٩٦ ، ٢٠٠٢م، ص ٢.

حضارة وادى الرافدين بين السـاميين والسـومريين/ أحمد سوسة.- منشـورات وزارة الثقافـة والإعـلام العراقيـة، دار الرشـيد للنشـر، ١٩٨٠م، (سلسـلة دراسـات؛ ٢٤١)، ص٦٥.

Language and politics / Thomas P . Brockway – U. S. A, ١٩٦٥, P.٢٧

(١٥) اللغة والسياسة فى عالم ما بعد ١١ سبتمبر/ محمـد محمد داود. – القـاهرة : دار غريـب، ٢٠٠٣م، ص ١٥٠.

(١٦) فى الثورة والتعريب/ محمد مصايف .- الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨١م، ص٢٣.

(١٧) El-Rassi l'arabisation et les conflits culturels dans l'Algérie indépendante, thèse du ٣è cycle, L'Ecole des Hautes Etudes en sciences sociales, Paris, ١٩٧٩.

(١٨) وضع اللغة العربية فى الجزائر/ عبد الله بوخلخال .- [د. م : د. ن] ، ١٩٩٧م .- (سلسلة كتاب قضايا فكرية ؛ ٢٨)، ص ٧٢.

(١٩) اللغة العربية وتحديات العصر/ صلاح عيد، ندوة الكلمة، الإصدار الأول، ٢٠١٠، ص٢٩.

(٢٠) بلخادم يدعو الدول العربية للإسراع في تأسيس مجلس أعلى للغة العربية: المقال الافتتاحى بجريدة الشعب الجزائرية، ٢٠٠٩/٢/٢٥م.

(٢١) راجع بتوسع: العربية وعلم اللغة الحديث/ محمد محمد داود.- القاهرة: دار غريب، ٢٠٠١م، ص ٢٨٢ وما بعدها.

(٢٢) مستقبل العربية فى سوق لغات العالم/ على القاسمى.- المغرب: جريدة العلم.- (٧يناير ٢٠١٢).

(٢٣) مقدمة ابن خلدون/ابن خلدون.- بيروت: دار الفكر، ١٩٨٨، ص١٨٤.